الفصل الثانى

تصميم الحديقة الاسلامية

١- اهداف التصميم

٢- النموذج السماوى

٣- البعد الرابع فى تصميم الحديقة الاسلامية

٤- انواع الحدائق الاسلامية

obeikandi.com

١- أهداف التصميم

يتفق علماء تاريخ الفن وإخصائيو عمارة البيئة على تميز الحدائق الإسلامية فى تصميمها بطابع خاص وشخصية فريدة رغم التباعد الجغرافى بينها، ورغم اختلاف أجناس مصمميها وقوميات من أنشأها.

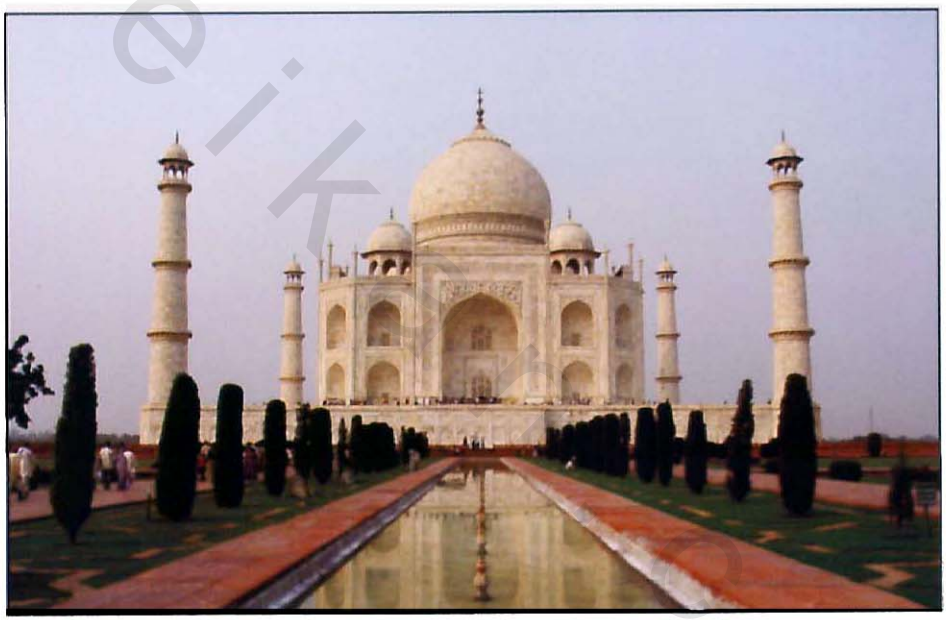

بستان تاج محل

يعتبرضريح تاج محل بمدينة أجرا والبساتين المحيطة به مثالاً لنضج فن تصميم الحدائق وازدهاره فى عصر الإمبراطور المغولى «شاه جاهان»

ويتعجب المستشرقون بصفة خاصة من هذا التجانس الملحوظ بالرغم من تفاوت أوقات إنشاء هذه الحدائق، كما يظهر مثلًا فى التشابه البصرى بين حدائق قصر الحمراء

التى بنيت فى جنوب أسبانيا فى القرن الثالث عشر، وحدائق تاج محل التى بنيت بمدينة أجرا بالهند فى القرن السادس عشر.

ويرد البروفيسور نورمان نيوتن أستاذ تاريخ عمارة البيئة بجامعة هارفارد فى كتابه الشهير «التصميم على الأرض ـ Design on the land» على هذه الملاحظة قائلًا:

«إن التجانس بين هذين الصرحين الإسلاميين العظيمين لا يرجع إلى تكرار التفاصيل للشكل العام أو التشابه المادى بينهما، بل إلى وحدة الروح. إن كليهما يمثل تعبيرًا رائعًا عن حقيقة عظيمة، حقيقة جمعت لأكثر من ألف عام بين أقوام عدة التفوا حول عقيدة واحدة بالرغم من اختلاف جنسياتهم وأقاليمهم، قوم واجهوا محن الزمان وتقلب الأيام وتعاقب السراء والضراء بعزيمة لا تنقطع لصيانة البيئة الطبيعية، وعشق لا يفنى لتطوير المناطق الخضراء، ومتعة لا تخفى فى التعبير عن هذه العزيمة وذلك العشق».

فليقولوا عليها ما يشاؤون وحدة روح أو عظمة الحقيقة، وليفسرو ما وراءها من عزيمة وعشق ومتعة. أما الباحث المدقق وخبير التصاميم البيئية الواعى بعملية الخلق والإبداع الفنى فسوف يصل إلى قناعة أكيدة أنه من الحتمى أن يكون وراء كل هذه الحدائق المتناغمة وكأنها سيمفونية يعزفها نفس الموسيقيين فى أزمان شتى وأماكن متباعدة، ما هو أهم من ذلك ألا وهو وحدة الهدف أو وحدة الأهداف. وبالفعل، فإنه يبدو واضحًا أن ثلاثة أهداف رئيسية قد سيطرت على خيال مصممى هذه الحدائق الخالدة وهى:

١- توفير حدائق للمتعة المادية والروحية والفنية لأهل الدور والقصور والمدن ولضيوفهم وذويهم.

٢- صيانة الإنسان والنبات من عوامل البيئة الطبيعية القاسية المحيطة بهم.

٣- تعمير الأرض من خلال الاقتراب من نموذج الفردوس المنشود وجنات الخلد كما ذكرتها أدبيات الإسلام.

من الواضح أن استعمال الأسوار العالية حول الحديقة الإسلامية نجح فى توفير عامل الخصوصية لرب الدار وعائلته وضيوفه، كما ساعد تصميم البيوت حول صحن خارجى أو فناء مفتوح على حماية البشر والأشجار والزهور والنافورات من ضوضاء وغبار وإزعاج الشوارع المحيطة التى تحولت فقط إلى مسار حركة للمشاة والدواب والعربات.

وفى هذا النموذج تحول الفناء إلى روضة خاصة استمتع فيها الإنسان بأبهج الروائح وأزهى الألوان، وتأمل فى مشاهدة تغيرات عناصر الطبيعة حوله. فكانت الحديقة بحق هى الواحة التى يجد فيها المسلم إشباعًا لأرق أحاسيسه الروحية من تأمل وطمأنينة وتفكير وإمتاع لحواسه الجسدية من سمع وشم ولمس وظل ظليل.

ونظرًا لأن العالم الإسلامى ـ على عكس أوروبا ومعظم مناطق أمريكا الشمالية ـ يقع معظمه فى أقاليم صحراوية أو شبه صحراوية، تؤثر تأثيرًا مباشرًا على تصميم الحدائق خاصة وعمارة البيئة عامة فقد كان الرد المنطقى لتهذيب ومعالجة هذه البيئة الرتيبة الخشنة هو محاولة تقليد الطبيعة التى أعطت الواحات الخضراء فى وسط القفار الصحراوية الممتدة.

وهكذا بدأ مصمم الحدائق الإسلامية فى إنشاء أمثلة مصغرة لهذه الواحات الخضراء فى شكل حدائق خاصة ملحقة بالبيوت أو رياض ملحقة بالقصور وحدائق عامة تابعة للمساجد والمدارس والمبانى العامة والميادين الشعبية، ولهذا فلا عجب أن تشير كاتبة عربية مثل سناء الجاك فى مقال بعد زيارتها لقصر الحمراء فى مدينة غرناطة بأسبانيا أن تصميم الحدائق الأندلسية هو درس لا ينسى فى «هندسة ترويض البيئة». وإلى جانب المتعة الحسية والحماية من عوامل الطقس، فقد كانت هذه البساتين مصدرًا للفواكه بأنواعها والنباتات العطرية والطبية بأشكالها فى تعبير واضح عن رخاء العيش وطيبات الرزق.

٢- النموذج السماوى

ورغم أهمية الإمتاع الحسى والكفاءة كمورد غذائى، فإن انفراد الحديقة الإسلامية فى السعى للنموذج السماوى هو الذى جذب أنظار العالم، ولفت انتباه المتخصصين فى عمارة البيئة وتاريخ الفنون. ففى أكثر من موضع، نجح الفنان المسلم فى التعبير خلال تصميم حديقته عن جنات الفردوس الموعود بما قيل عنها من خصوبة وجمال واستقرار وفضاء فسيح وآفاق لا نهاية لها، بل وحرص فى هذه الروضة المثالية أن تتبادل النباتات المختلفة فى النمو والازدهار فى تتابع دائم. ومن ثم، فتبدو فى قمة جمالها وكامل ثمارها وروعة رونقها على مرور الفصول والشهور، ورغم هذا فمن الواضح أن

مصمم الحدائق الإسلامية لم يحاول فرض أنماط دخيلة أو تصاميم أجنبية على الموقع بل استوحى دائمًا شخصية المكان. وبهذا، فإن الموقع الأصلى ازداد جمالًا وثراءً بما أضافته فكرة تصميم الحدائق عليه من عناصر نباتية ومائية ومعمارية وسيكولوجية.

وبين البراعة فى ترويض البيئة من جهة واستلهام شخصية المكان من جهة أخرى، ظهر تميز الحديقة الإسلامية فى تصميمها المادى المحسوس وفكرتها الفلسفية.

فعلى النقيض من العقلية الأوروبية والغربية التى تركز على الشكل الخارجى للمبنى أو للحديقة وعلى الكتلة المعمارية، فيبدو أن التصاميم الإسلامية تعنى عناية خاصة بالفراغ المعمارى أو طبيعة وحجم وتشكيل المكان، وما يتميز به من إضاءة ومناخ محلى وتكوين فنى.

ونستطيع القول بأن أهم خصائص تصميم الحدائق الإسلامية الواضحة أنها بالفعل تمثل معادلة متوازنة بين العقل والتحكم البشرى فى البيئة الطبيعية من جانب، وبين منظومة الطبيعة وعناصرها المختلفة (كالمناخ، والنبات، والماء، وتضاريس الأرض ... إلخ) فى تصميم البيئة البشرية والموقع من جانب آخر، كل يكمل الآخر وكل يدعم الآخر، وهذه الخصوصية هى فى الواقع مايميزها عن المدارس الفنية الأخرى خاصة الأوروبية منها. فبعد خروج العالم الغربى من عصور الظلام، عاشت أوروبا فى ظل مدرستين متصارعتين فى فن تصميم الحدائق وعمارة البيئة، أحداهما فى فرنسا بقيادة Andre Le Notre والأخرى فى إنجلترا بقيادة «كابابيلتى براون ـ Capability Brown» فنجد مثلًا فى حدائق قصور «فرساى ـ Versailles» بباريس أن مصمم الموقع Le Notre قد حاول أن يعكس انتصار العقل والمنطق والمبادئ الديكارتية على الطبيعة وعبرت تصميماته عن سيطرة الإنسان على البيئة المحيطة به. بينما كانت أعمال المدرسة الرومانسية الإنجليزية بقيادة «كابابيلتى براون ـ Capability Brown» وأتباعه رمزًا قاطعًا لاستسلام الإنسان كلية (عقلًا وجسدًا) لقوى البيئة المحيطة به.

وبالمقارنة العلمية، نجد أن الحديقة الإسلامية قد برزت من منطق آخر مختلف عن مدرستى أوروبا المتناحرتين، ولعل ميزتها تعكس الدور الذى قدره الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة أن تلعبه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] حيث تقع فى نقطة توازن بين سيطرة الطبيعة وسيطرة الإنسان.

٣- البعد الرابع فى تصميم الحديقة الإسلامية

وأخيرًا وليس آخرًا، تميزت الحدائق الإسلامية عامة وحدائق بلاد الأندلس بصفة خاصة بقاعدة فنية جديدة غيرت قواعد التصميم وعمارة البيئة بشتى أنحاء العالم، وهى العناية القصوى بتوفير محور بصرى عند نقاط معينة فى الحديقة للسماح بمشاهدة المناظر البعيدة للبيئة المحيطة وإعطاء محاور بصرية بانورامية للفراغات.

وقد كانت هذه القاعدة امتدادًا لقواعد التصميم المعمارى فى هذا العصر والتى استعملت تشكيلات الجدران والبوابات والنوافذ والدهاليز والمشربيات والعقود والقباب للتحكم فى ما يشاهده أهل الدار وضيوف القصر من مناظر محيطة ومساحات خضراء وأماكن مفتوحة مثل الأسواق العامة، وساحات المسجد الجامع، والمتنزهات العامة، والبساتين الملحقة بالمقابر والأضرحة المهمة.

وقد انتشر هذا الاهتمام بالتحكم البصرى للمناظر التى يشاهدها زائر الحديقة الإسلامية فى الكثير من أعمال دولة الأمويين وأمراء الطوائف والمرابطين والأمراء الناصريين، ثم انتقلت إلى بلاد شمال أفريقيا وظهرت بوضوح فى تصميم مدرجات قلعة

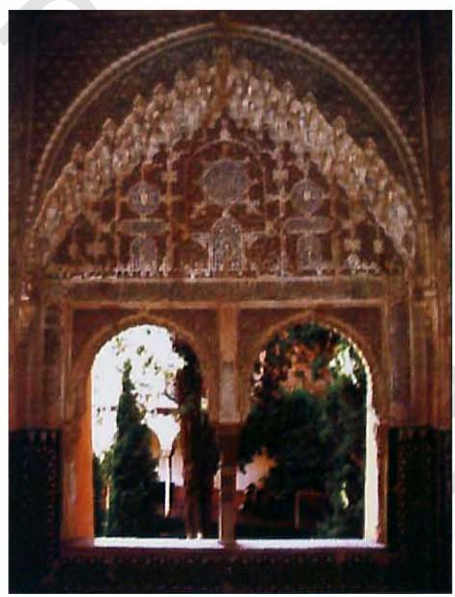

قصر الحمراء بمدينة غرناطة

تمكن مهندس عمارة البيئة فى هذه المجموعة من الحدائق والمبانى من النجاح فى التحكم المرئى، لتقديم دراما لمشاهدة البيئة المحيطة من خلال إطار معمارى كالنوافذ والمشربيات.

دار البحر لأسرة آل حماد بالمغرب، كما ظهرت فى وسط آسيا لاحقًا فى قصر Laskkar-Basar فى أفغانستان. وبالرغم من ذلك فتظل حدائق قصر الحمراء هى النموذج الأمثل لنجاح المصمم فى التحكم المرئى؛ حيث تمكن من تقديم نوعين من دراما المناظر:

١- مشاهد البيئة الطبيعية المحيطة التى دائمًا ما يتم مشاهدتها على بعد من خلال إطار معمارى كنافذة أو شرفة أو مشربية.

٢- مشاهد الحديقة الداخلية والمكونة من مصاطب متدرجة يلعب فيها عنصر الرمز دورًا كبيرًا من خلال مفردات عمارة البيئة من نافورات مياه، وأشجار وزهور، وتبليطات وجدران وأكشاك، وتكعيبات للنباتات المتسلقة.

ولا شك أن مثل هذا النجاح أمر متوقع؛ حيث يبدو واضحًا مهارة الفنان فى الحشد والتنويع لمفردات التشكيل الفنى لهذه الحدائق، وتمكنه الفذ فى التخطيط المسبق لمسارات حركة زوار الحديقة ـ أو ما نسميه بالبعد الرابع ـ بحيث تتعاقب عليها المشاهد المختلفة سواء خارجية أم داخلية، كما تتتابع مشاهد وفصول مسرحية ما أو حركات مختلفة فى كونشرتو موسيقى عذب ورقيق تتدافع أنغامه من قوة وسرعة إلى بطء ورصانة، ومن إيقاع راقص إلى جملة عميقة.

ويلاحظ هذا التشكيل الرشيق كل زائر لحدائق الحمراء أو جنات العريف فى غرناطة، فيشاهد متتابعة من الألوان والنغمات والنور والظلال والماء والعطر، فنحن أمام صرح تخطى فيه الفنان حدود الزمان والمكان ليبلغ مستوى من الشمولية الإنسانية فيرضى جميع النفوس ويهز مشاعر مختلف الطبقات، بدائية كانت أو راقية، شعبية كانت أو مثقفة، شرقية كانت أو غربية.

إن فن تصميم الحديقة الإسلامية بمثل هذه المميزات يمكن تسميته بالمثل الأعلى للفن، ومن المهم الإشارة إلى أن هذا يعتبر شيئًا نادرًا عبر تاريخ البشرية فى مجالات الرسم والنحت والموسيقى والعمارة، فالمثل الأعلى للفن ينتج تاريخيًّا عن تداخل الفطرة والموهبة والمعاناه والصنعة والدراسة التقنية المستفيدة من التجارب الإنسانية والخبرة التى تعكس الجانب العلمى فى أى من الفنون الجميلة.

وقد لخص مؤرخ عمارة البيئة الإنجليزى «جيفرى جيليكو ـ Jeffery Jellico» فى كتابه

الشهير «عمارة البيئة الإنسانية ـ Landscape Of Man» تفسيره لنجاح الفنان المسلم فى التحكم البصرى من خلال «تصميمه للحديقة الإسلامية وابتعاده الإرادى والمتعمد بعض الأحيان عن التماثل فى تشكيلاته الفنية حتى يتطور الإدراك الحسى تدريجيًا فى العقل بدلًا من المشاهدة المباشرة التى تسهل عبورها من خلال الحواس وببساطة ذهنية فطرية».

٤- أنواع الحدائق الإسلامية

بالرغم من زوال معظم الحدائق الإسلامية التاريخية، وسوء صيانة بعض هذه الحدائق القائمة، فقد استطاع الباحثون والدارسون لهذا المجال أن يشكلوا فكرة جيدة عن أنواع ومميزات وأوصاف الحدائق الإسلامية فى إيران وكشمير والهند وبلاد الأندلس، ولا شك أن كتابات الرحالة العرب مثل ابن بطوطة والإدريسى والمقريزى، والرحالة الأوروبيين قد ساهمت بدرجة كبيرة فى معرفة الكثير عن مواقع وأوصاف وقواعد تخطيط الكثير من الحدائق الإسلامية التى زالت على مر السنين أو أعيد تشكيلها أو تغييرها عن بادئ عهدها.

ويجدر القول هنا أنه رغم أن الحدائق الإسلامية المشهورة التى تم الحفاظ عليها إلى يومنا هذا أكثرها من حدائق القصور والسرايات الخاصة بالأمراء والملوك وعلية القوم أو لأضرحتهم ومقابر موتاهم، إلا أن كتابات الرحالة المختلفة تؤكد أن الحديقة الإسلامية لم تكن حكرًا على هذه الصفوة من الأثرياء والطبقات الحاكمة، بل إنها وُجدت على نطاق واسع فى كثير من دور الأهالى، ولكن بمساحات صغيرة نسبيًا خاصة فى حدائق الصحن الملحقة بكثير من بيوت عامة الشعب. ويعتبر الصحن أو الفناء نوعًا من الشكلين الأساسيين للفراغات الخارجية الخضراء التى تشملها دراسات عمارة البيئة، التى نطلق عليها تعميمًا لفظ الحديقة. لكن العرب فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية عامة وحقل عمارة البيئة بصفة خاصة كان لهم تعريفات أكثر دقة فى تصنيف وتحديد أنواع هذه الفراغات الخارجية الخضراء. وعلى سبيل المثال، فقد عرَّفوا الحديقة بأنها بستان حوله حائط أو جدار ويحتوى على روضة أو رياض متعددة. والروضة هى مكان تجمع المياه فى مساحة مزروعة (التى يشير لها الفلاح فى يومنا هذا بحوض الرى). وقد عرف العرب الجنة تحديدًا بأنها الحديقة ذات الشجر، وذلك لأن الأشجار تستر الأرض بظلالها. أما إذا استعملت فى الأدبيات الدينية فيقصد بها دار النعيم فى الآخرة أو الفردوس.

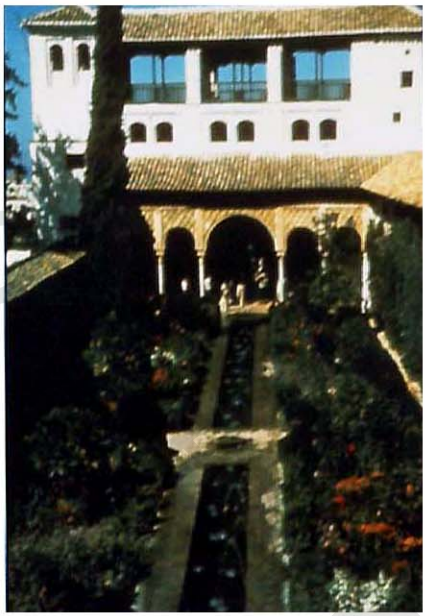

حديقة الصحن

يتميز هذا النوع من الفراغات المفتوحة بإحاطته بعناصر المبنى المختلفة وغرفات المنزل وأسواره، وقد يطلق عليه اسم الفناء مثل حديقة «جنة العريف» بغرناطة.

وفراغ الصحن دائمًا محاط بعناصر المبنى المختلفة أو غرفات المنزل وأسواره ويتميز بالآتى:

* ينتشر فى المدن المزدحمة بالسكان.
* تغلب عليه التبليطات الأرضية والعناصر المعمارية مثل التكعيبات، والعقود، والمظلات.
* يحتوى على بعض النباتات من أشجار وزهور ونباتات متسلقة.
* يجمع بعض العناصر المائية، مثل الآبار والنافورات.
* يتميز بصغر المساحة نسبيًّا.
* يتمتع دائمًا بمناطق ظليلة نتيجة لوجود المبانى المحيطة أو من خلال بناء تكعيبات وأكشاك لتوفير الظل لمستعملى الصحن.
* يتخذ فى أغلب الأحيان شكلًا مربعًا.

أما ما أطلقنا عليه مسمى البستان فهـو يتميز بالآتى:

* ينتشر أساسًا فى الضواحى والأرياف.
* يغلب عليه المناطق الخضراء والنباتات والزهور.
* يستخدم عنصر الماء فى أغلب الأحيان فى صورة نافورات، أو شلالات، أو جداول، أو قنوات بأشكال مختلفة.
* يتميز البستان باتساع المساحة ويحيط أساسًا بضريح مهم ـ مثل «تاج محل ـ Taj Mahal» ـ أو استراحة أو قصر صيفى أو خيمة لتوفير بعض الحماية من تقلبات الطقس لزوار المكان مثل بستان «شار باغ ـ char bagh» فى إيران، أو بستان تيمورلنك بمدينة سمرقند الذى بلغت مساحته(٣٥٠ × ٥٠٠ متر).
* يعكس فى كثير من الأمثلة شخصية المكان والطابع الإقليمى للموقع.
* يغلب على تشكيله الفنى فكرة الفردوس المنشود.
* يتخذ فى أغلب الأحوال شكلًا مستطيلًا، وينقسم إلى أربعة أقسام متساوية فى إشارة رمزية إلى جنات الخلد الأربعة، ويفسر الكثير من أساتذة تاريخ الفنون الإسلامية والباحثين فى عمارة البيئة عند المسلمين أن التقسيم النمطى للكثير من الحدائق الإسلامية إلى أربعة أقسام يعود إلى جذور دينية تنبع من تفسير الآية القرآنية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

وبناءً على هذا التصور الذهنى فى خيال الفنان المسلم، انقسم البستان إلى أربع رياض يفصلها عنصر مائى يرمز لأنهار الجنة، وكل حديقة مخصصة لفئة من الفئات الأربعة الموعودة بالجنة؛ أى: الأنبياء، والصديقين (أو أوائل من انضم للدعوة) والشهداء، والصالحين.

والواقع أن هذين النوعين من الحدائق الإسلامية يمكن رؤيته جنبًا إلى جنب فى «مجموعة قصر أصفهان». وتعتبر مجموعة قصر أصفهان الكبير فى إيران أنسب الأماكن لمشاهدة هذين النوعين من الحدائق الإسلامية جنبًا إلى جنب، كما تعتبر جزيرة الروضة

الواقعة بجوار الصرح الأثرى لمقياس النيل بمدينة القـاهرة من أهم الدلائل على أن الحدائق والمنتزهات كانت جزءًا من النسيج العمرانى للمدينة الإسلامية فى الماضى.

وقد أكد الكثير من الباحثين فى خصائص المدنية العربية هذا الاعتقاد؛ حيث أشاروا إلى أن فى عصور الإسلام المزدهرة تم إنشاء شبكة من الحدائق تخللت أنحاء المدينة. ولعل المؤلف المشهور وأستاذ علوم عمارة البيئة «جاريت إكبو ـ Garrett Eckbo» كان أكثرهم تفصيلًا فى شرح هذه النقطة عندما ذكر فى أحد كتبه:

«نستطيع مشاهدة أمثلة ممتازة من الحدائق فى وسط آسيا، وشمال الهند، وجزيرة العرب، وشمال أفريقيا، وأسبانيا وكل هذه الحدائق كانت حدائق مغلقة محوطة بأسوار أو مبانٍ تحميها من رمال الصحراء وخشونة الطقس، ويعتبر خلط الطبيعة بالبيئة العمرانية هو أحد مميزات المدينة العربية القديمة، فقد خلطت الكتلة العمرانية بعناصر الطبيعة المختلفة من جبال وأنهار وغابات وتلال».

وبناءً على هذه النظرة العامة أو المسح التاريخى والجغرافى لحدائق بلاد الفرس خلال تعاقب الدول على حكمها بدءًا من الدولة الغزنوية ثم التيمورية، وأخيرًا الصفوية وحدائق المغول فى شبه القارة الهندية، وحدائق الأندلس أثناء عصر الأمويين ثم ملوك الطوائف والدولة الناصرية، نستخلص أنه بالرغم من اقتصار الشكل العام للحدائق الإسلامية على الصحن والبستان إلا أن الأهداف الانتفاعية والفكرة الرئيسية تنوعت من حالة إلى أخرى؛ لذا فقد ذكرت لنا الوثائق التاريخية أنواعًا مختلفة من الحدائق مثل:

* حدائق الدراسة والقراءة والمعرفة.
* حدائق التأمل والتفكر والعبرة.
* حدائق الخلود، وتضم أضرحة الملوك وشيوخ الطرق الصوفية والأولياء الصالحين وشهداء الأمة.
* حدائق القصر.
* حدائق الشعب، وتضم المتنزهات العامة.

وسوف يرد ذكر هذه الأنواع وغيرها بالتفصيل فى الفصل الخاص بأمثلة الحدائق فى العالم الإسلامى عبر التاريخ.

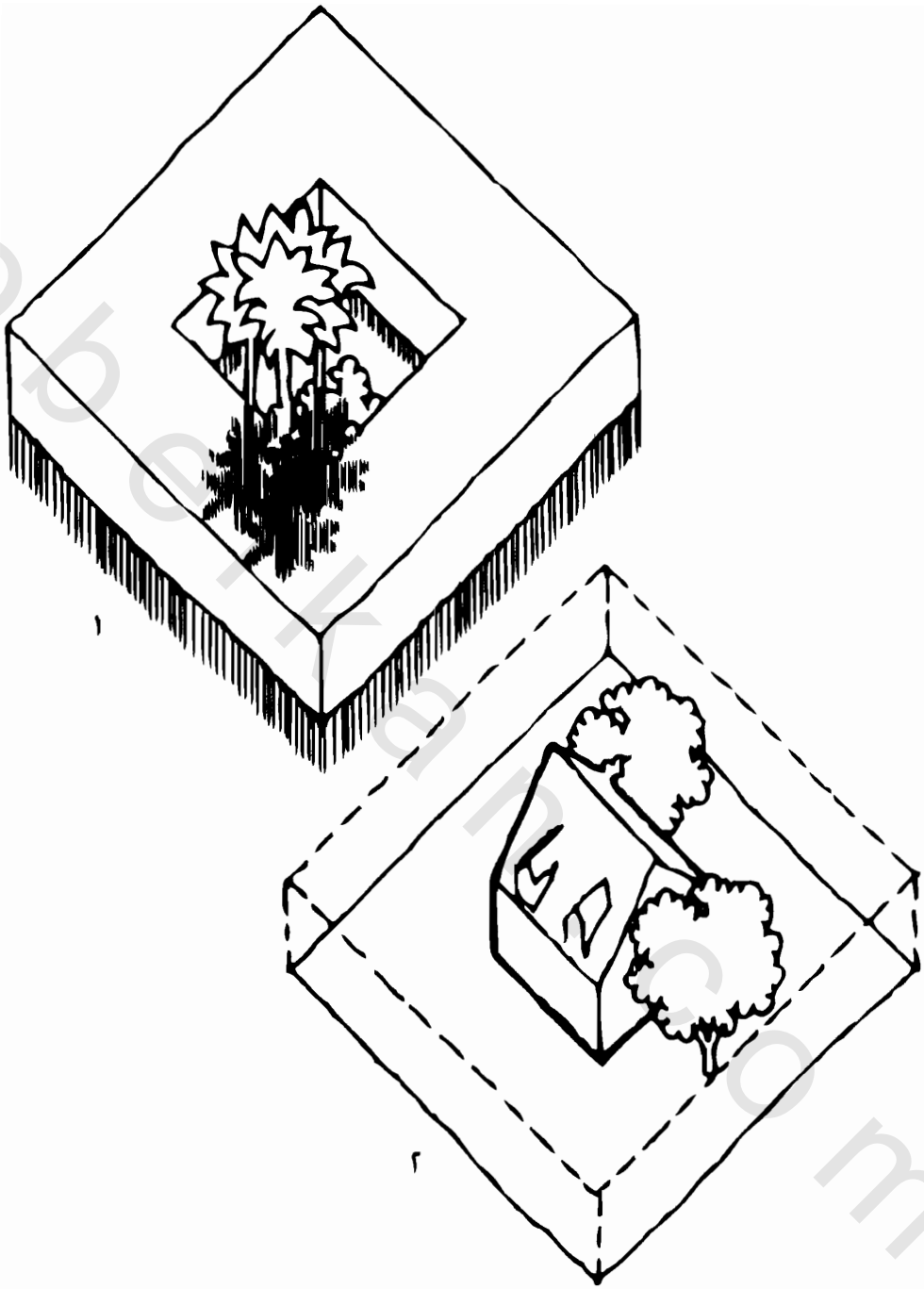

أنواع الحدائق الإسلامية

من الممكن تقسيم الحدائق الإسلامية إلى نوعين أساسيين من حيث تشكيل الفراغ المعمارى: الأول: هو حديقة الصحن. والثانى: هو البستان.